الجذور الدينية للارهاب الصهيوني

سمير ابو حمدان

في العام ٤٥٨ ق . م قرَّ رأي الكاهن الأكبر « نحميا » الذي كان ساقياً أو خادماً[١] في البلاط الفارسي في عهد الملك « دارا » ، على أن يزور أورشليم ليرى ما عسى أن يكون عليه هناك أقاربُه وأتباع ديانته . فمضى إلى الملك الفارسي مستأذناً الرحيل ؛ فهو يريد أن يجعل من أورشليم الدولة القوية التي تستطيع أن تدافع عن نفسها فيما لو تعرضت لغزوٍ من قبل المصريين .

وما أن حطّ عصا الترحال في أورشليم التي يريد لها العزة والمكنة حتى صُعِقَ بما رأى وشاهد . فالاندماج والتخالط والتعاون على أشده بين القبائل اليهودية وبين الشعوب الأخرى . وعلى هذا فقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها « نحميا » بعد أن وطىء أورشليم هي الفصل التام بين اليهود والآخرين المنتمين إلى الشعوب الأخرى . ويروي لنا نحميا مشاهداته على الوجه التالي : « رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤابيات ، فلعنتهم ، واستحلفتهم قائلاً : « لا تعطوا بناتكم لبنيهم ، ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم »[٢] ومنذ ذلك الحين غُرست بذور الانغلاق والقوقعة والتعصُّب العنصري المؤسَّس على الارهاب . ولعل الجنى الذي قطفه « نحميا » من وراء حركته تلك أن اليهود « دخلوا في قَسَم وحلف أن يسيروا في شريعة يهوه ، وأن لا نعطي بناتنا لشعوب الأرض ولا نأخذ بناتهم لِبَنينا »[٣] .

ولسوف ننتظر حتى عودة الكاهن الآخر « عزرا » من المنفى البابلي . فقد عاد هذا الأخير وهو يبسط بين يديه سلطةً ملكية محضه إياها ملك الفرس وطلب منه أن يعيد بناء هيكل سليمان . وحمل أمراً ملكياً بأن يُعطى المال الذي يريد و« تقديم العمال الذين يحتاجهم لأجل جعل مسكن يهوه في أورشليم معبداً لا يقل عظمةً عن معبد سليمان »[٤] . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن ملك الفرس وجَّه إنذاراً إلى البابليين يقضي بإعادة الغنائم التي كانوا قد غنموها من أورشليم . ليس هذا وحسب بل إن « أرتحششتا » ، الملك الفارسي ، شرّع خزائنه أمام اليهود وزعيمهم « عزرا » طالباً منهم أن يمدوا أيديهم عند الحاجة ، وهم الذين عقدوا العزم على بناء ما تهدَّم من أورشليم بفعل الحملات المصرية والبابلية . وهنا نص الرسالة التي وجهها « أرتحششتا » إلى « عزرا » الكاهن ، وهو في الوقت نفسه يحمل لقب (كاتب شريعة إله إسرائيل) . تقول الرسالة : « . . . من أرتحششتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن : قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي ، من شعب إسرائيل ، أن يرجع إلى أورشليم معك ، فليرجع من أجل أنك مرسلٌ من قبل الله لحمل فضةٍ وذهب تبرع بها الملك لإله اسرائيل الذي في إسرائيل مسكنه . وكل الفضة والذهب التي توجد في كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذي في أورشليم .

وباقي احتياج بيت إلهكَ الذي يتفق لك أن تعطيه من بيت خزائن الملك. ومني أنا ارتحششتا صدر الأمر إلى كل الخَزَنَة الذين في عبر النهر، أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن فليُعمل بسرعة. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك، فَلْيُقضَ عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس »[٥].

عزرا واضع أول أساس إرهابي

ولكن من هو « عزرا » هذا ؟

إستناداً إلى السّفر السابع فإن « عزرا » كان « كاتباً متمهّراً في شريعة موسى التي أعطاها يهوه إله إسرائيل »، إلا أن ما تميّز به هذا الرجل من بين أقرانه السابقين أنه انطوى على شخصيةٍ قوية ذات نزعة تعصبيّة استعلائية لم يكن قد عرف مثلها الشعب اليهودي عبر تاريخه. فهو متطرف إلى أقصى حدود التطرف، وما إكبابه على تجميع أسفار التوراة المبعثرة هنا وهناك إلا لغاية محددة وهي إعادة بناء العقيدة الدينية اليهودية على أسس من التعصب والتطرف والتقوقع والانعزال عن باقي الشعوب. أما الأداة الرئيسة التي استخدمها « عزرا » في السبيل إلى إنخراط اليهود في العقيدة اليهودية ـ بحلّتها الجديدة العنصرية ـ فهي العصا الإرهابية فقد كان اليهود قبل العودة الميمونة « لعزرا »، ومن قبله « نحميا »، يعيشون في عزٍ ورغد مع الشعوب والقبائل الأخرى المنتشرة في أورشليم وحولها. لكنّ ظهور « عزرا » على المسرح السياسي والديني، مسلحاً بأوامر ملكية قاطعة، قَلَب الوضع رأساً على عقب. فقد كان على اليهود أن يرضخوا للتعاليم الجديدة، المترعة بالضغينة والتشّفي.

وإذا كان لنا أن نذهب بعيداً في رؤيتنا للمشروع الذي جاء به « عزرا » فإنه ليُمكننا القول بأن فكرة (الغيتو) خرجت من لدنه وترعرعت في كنفه. فهو يرى أن الخطأ الأساسي الذي ارتكبه اليهود أنهم تنازلوا عن الامتياز الذي خصَّهم به الله، وهو أنهم شعبهُ المختار ». ومن أجل استرجاع هذا الامتياز والحصول عليه مجدداً راح يوغر صدور اليهود غارساً في أعماقهم بذور التعصب والانعزال وعدم الاختلاط بباقي الأجناس. فهو عاش أحلك ساعات حياته عندما شاهد ـ وبالاستناد إلى السِّفْرين التاسع والعاشر من التوراة ـ أن اليهود « اتخذوا من بنات شعوب الأرض لانفسهم ولبنيهم. واختلط الزرعُ المقدس (أي اليهود) بشعوب الأرض ». وبسبب هذه المصيبة التي أَلَمَّتْ به راح يمزّق ثيابه وينتف شعر رأسه ولحيته. إنه يقول « مزّقت ثيابي، ونتفت شعر رأسي وذقني، وجلست متحيّراً » فاليهود بالغوا كثيراً في الاختلاط بغيرهم، وفي مسألة التزاوج بينهم وبين أبناء الأديان والأعراق الأخرى. ولكن هل يبقى « عزرا » ساكتاً فلا يأتي عملاً يقي الشعب اليهودي من (الدنس) ؟ بالعكس من ذلك ؛ فقد هَزَم « عزرا » أمره وطلب من شعبه الانعزال إجتماعياً وجغرافياً، وإلا فالعصا الإرهابية جاهزة. قال لهم : « إنفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبات ». وكان أن نُفِّذ هذا الأمر بسرعة متناهية، وذلك بفضل (السلطة) التي مَحَضَه إياها ارتحششتا عندما قال له في رسالته « وكل من لا يعمل شريعة إلهك، فَلْيُقضَ عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس ».

ولم يكتف « عزرا » بهذا الأمر، إذ دشَّن به سياسته العنصرية الجديدة، وإنما قَرَنه بأمرٍ آخر مرفقٍ بنبرة الترهيب، وهو يقضي بأنه يطرد الرجالُ اليهود نساءهم غير اليهوديات، وكل من وُلد منهن. أما النبرة الإرهابية فتجلّت في قول « عزرا » : « وكل من لا يأتي في ثلاثة أيام، حسب مشورة الرؤساء والشيوخ، يُحرم كل ماله ». وكانت مشورة الرؤساء والشيوخ الذين تحدث عنهم « عزرا » تلّح على اليهود بأن يُخرجوا النساء غير اليهوديات من ديارهم، إضافة إلى أولادهن.

تاريخ من التعصب والإرهاب

إذن فقد استطاع « عزرا » أن يضع حجر الأساس للمشروع العنصري الصهيوني، المستند إلى تعاليم من التوراة، والمفروض على الشعب اليهودي، آنذاك، بالقوة والإرهاب. ولئن كان « عزرا » هو (كاتب الشريعة اليهودية) فإن الشعب اليهودي، بأمه وأبيه، انْسَاقَ وراءه دون معارضة تذكر. حتى أن هذا المشروع العنصري ـ الإرهابي تحول فيما بعد إلى عقيدةٍ مقدسةٍ راحت تضرب عميقاً في الوجدان اليهودي لدرجة أنها باتت الأساس الثابت الذي تقوم عليه أنماط عيشهم وتفكيرهم. ليس هذا وحسب، بل إن اللبنة التي وضعها « عزرا » لمشروعه استحالت، عند الأجيال اللاحقة من اليهود، وقوداً لحروب عدة مع الشعوب والأمم الأخرى. وليست الحروب العربية الاسرائيلية سوى النسخة الحديثة والمعاصرة لها « فنزعة الاستعلاء تجذّرت وترسخت في الشخصية اليهودية بحيث أن صهاينة اليوم لا يستطيعون أن يصدّقوا بأنهم ليسوا شعب الله المختار. وما القرار الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من تشرين ثاني عام ١٩٧٥ والقائل بأن « الصهيونية شكل من أشكال

العنصرية والتمييز العنصري (رقمه ٣٣٧٩) سوى إدانة عالمية لهذه النزعة .

لا بد من القول إذن أن هذه النزعة العنصرية ، وأساسها الإرهاب ، جرَّت على اليهود مقت الآخرين وكرههم . فالكنعانيون ذُهِلوا وشَابَ شعرهم عندما علموا بفعلة اليهودي « إبرام » . فهذا الأخير ، وبعد أن كان ضيفاً معززاً مكرَّماً في بلاد كنعان أوصى عبده ، وهو يهودي ايضاً ، بعدم تزويج ابنه بواحدة من بنات الكنعانيين . فهؤلاء ، بحسب يهوديَّة « عزرا » ، أدنى منزلةً واحطّ قدراً من اليهود . ووفق ما يقوله سفر التكوين (٢٤) فإن « ابرام » يوصي هذا العبد قائلاً : « لا تأخذ زوجةً لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجةً لابني إسحق » . هذا بالرغم مما لقِيَه « ابرام » عند الكنعانيين من الحماية وكرم الضيافة . ففي أرضهم سرَّح ماشيته ، ونصب خيمته ، وأقام شطراً طويلاً من حياته بين ظهرانيهم . واستناداً إلى سفر التكوين ايضاً (٢٠ ـ ٢٣) فإن « إبرام » هذا كان قد طلب من « أبي مالك » وهو فلسطيني كان ملكاً على « جرار » أن يسمح له باستخدام أرضه ، أي أرض « جرار » ، مرعى لماشيته ومقراً لسكناه ، فما كان من « أبي مالك » إلا أن أجابه قائلاً : « . . . أرضي قدَّامك . أسكن فيما حَسُن في عينيك » . أما « عفرون » ، وهو رئيس قبيلة « بني حث » الكنعانية ، فإنه لم يرد « إبرام » خائباً عندما التمس منه أنه يمتلك قبراً في أرضه . وكان جواب « عفرون » : « الحقل وهبتكَ إياه والمغارة التي فيها ، لكَ وهبتها » .

ولم يكن « إسحق » أكثر وفاءً من أبيه « أبرام » . فقد كان هذا الشبل من ذاك الأسد . فبالرغم من حسن الوفادة التي غمره بها الكنعانيون لدرجة أن « أبا مالك » ـ ملك « جرار » ـ أوصى به أفراد شعبه بالقول : « الذي يمسّ هذا الرجل موتاً يموت » (سفر التكوين ، ٢٦) . . . بالرغم من ذلك فإن « إسحق » أوصى ابنه « يعقوب » بعدم الاقتران بامرأة كنعانية مهما كلَّف الأمر . وهو يقول له بنبرة مختصرة وحازمة : « لا تأخذ زوجةً من بنات كنعان ! » (سفر التكوين ، ٢٨) .

إن التاريخ الديني لليهود مترع بالدروس والعبر التي تنهض برهاناً على أن نزعة الإرهاب والغدر ليست وقفاً على الصهيونية المعاصرة . إن جذور هذه النزعة لتضرب عميقاً في الشخصية التاريخية لليهود بحيث يمكننا القول إن ثمة ، في التاريخ الإرهابي لليهود ، أكثر من (كفر قاسم) واحدة ، وأكثر من (دير ياسين) واحدة ، وأكثر من (صبرا وشاتيلا) واحدة . ولعلنا نكتفي ، هنا ، بالمذبحة الرهيبة التي ارتكبها « بنو يعقوب » اليهود ، بحق الكنعانيين (وهم مضيفوهم !) . فبالاستناد إلى التاريخ المكتوب يروى الحدث التالي : لقد أحب « شكيم بن حمور » الكنعاني ابنة « يعقوب » اليهودي . فما كان من « حمور » ، وهو رأس القبيلة ، إلا أن توجَّه إلى خيمة « يعقوب » ، وأقنعه بزواج إبنه « شكيم » من ابنته التي كانت تبادله الحب ، فقال له : « شكيم ابني : قد تعلَّقت نفسه بابنتكم ، اعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ؛ اسكنوا واتجروا فيها ، وتملكوا بها » (سفر التكوين ، ٣٤) . وإذ اقتنع « يعقوب » وأبناؤه بما تفوَّه به « حمور » ، إلا أنهم اشترطوا ـ إذا ما أريد لهذا الزواج أن يتم ـ أن يختتن جميع الذكور في قبيلة « حمور » . وقُبِل الشرط . إلا أن أفراد قبيلة « حمور » فوجئوا ـ وفي نفس الليلة التي اختتنوا فيها مع ما سببه لهم ذلك من آلام ـ بهجوم كاسح ليشنه عليهم « بنو يعقوب » اليهود . أما المذبحة التي ارتكبها الأخيرون فهي من أفظع المذابح التي يذكرها التاريخ القديم . فقد أُفني « بنو حمور » عن بكرة أبيهم إذ هوجموا نياماً وفي مخادعهم . والسبب في كل ذلك أن شاباً غير يهوديّ أحب فتاةً يهودية !

الوهم الذي جنى عليهم

لعل ما تحصَّل لنا إلى الآن يجعلنا على ثقة بأن نهج الانعزال والتقوقع والعنصرية الذي وضع أسسه الزعماء اليهود القدامى (وهو لا يزال مفعوله سارياً إلى أيامنا هذه) من مثل « نحميا » و« عزرا » ، وقف سداً منيعاً بين الشعب اليهودي والشعوب الأخرى المجاورة له . فهؤلاء كانوا عقبة كؤوداً أمام انصهار شعبهم واختلاطه بغيره من الشعوب ، مما أدى ، من بعدُ ، إلى أن يكون اليهود جسماً غريباً في المجتمع السوري القديم يجب استئصاله وإزالته . فالمجتمع السوري القديم ، المعروف بانفتاحه الحضاري ، كان بمقدوره إيجاد حالةٍ من التفاعل والحوار والانصهار بينه وبين الشعب اليهودي ، مثلما الحال مع شعوب أخرى كالحوريين والسومريين والأكاديين والأموريين والكنعانيين والآراميين والحثيين والمسلمين . « ولكن هذه الجماعة التعيسة جنى عليها زعماؤها العرقيون الذين أوهموها أنهم أنبياء يتكلمون باسم إله اختار اليهود شعباً خاصاً به ؛ وهو يرى أنه من الخير لهم الانغلاق والتقوقع والانعزال عن الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها » كما يقول

« أرنولد توينبي » في كتابه « درس من التاريخ » .

فالانغلاق على النفس (الغيتو) حالَ بينهم وبين الانصهار مع الكنعانيين ، ففضّلوا النزوح إلى مصر . وفي مصر أيضاً ـ وبالرغم من حسن الوفادة والتكريم ـ فضّل اليهود أن يعتزلوا في مكانٍ ما ، بعيداً من مضيفيهم المصريين الذين هبّوا لمساعدة النازحين الجدد ، ولكنْ ، حفاظاً على نقاء العرق اليهودي ، إختار هؤلاء مكاناً من مصر يدعى « جاسان » ، واتخذوه مقراً لهم . ومنذ ذلك الحين بدأ زعماء اليهود بإعداد الخطط الإرهابية ضد أصحاب البلاد الأصليين . وسرعان ما نشبت الحرب بين المصريين والهكسوس ، فوضع اليهود يدهم بيد الهكسوس الذين إنهزموا ورُدُّوا على أعقابهم . وما أن نفض المصريون عن أنفسهم غبار الحرب حتى توجهوا إلى الضيوف ، ناكري الجميل ، ونكّلوا بهم ، الشيء الذي جعل اليهود يضمرون الشر للشعب المصري وشعوب الأرض كافة .

وإذ سار بهم « موسى » عبر الصحراء ، فإنه ظل يهيم بهم قرابة النصف قرن . وبطريقة الترغيب والترهيب أقنع موسى شعبه التائه بأن إلّه بني إسرائيل أقوى من أيّ إلّهٍ آخر ، وهو أقوى ـ خاصةً ـ من إلّه المصريين . وأكثر من ذلك ، فقد جُعِل الإلّه الذي تحدث عنه موسى إلهاً قومياً ، مخصوصاً بهم ، ويعدهم بوطنٍ قوميّ يدعى « فلسطين » . ولعل الطريقة التي توجّه بها موسى إلى شعبه حملته على الاعتقاد بأن إله العبرانيين هو الأقوى بين الآلهة كافة . وطالما أن هذا الإلّه جعل من اليهود شعبه المختار ، فإن باقي الشعوب والأمم الأخرى أضحت أدنى قيمةً وأقل نقاءً منه . ولعل النصوص التي نقع عليها في العهد القديم تؤكد هذا الاعتقاد الذي باتت جذوره راسخة في الشخصية اليهودية التاريخية . ففي سفر التثنية نقرأ الآيات التالية « وواعدك الربُ أن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك) و(أنتم أولاد للرب إلهكم ، وقد اختارك الربُ لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) و(لأنك أنت شعبٌ مقدسٌ للرب إلهك . إيّاك قد اختار الربُ إلهكَ لتكون له شعباً أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) ٢٦ ، ١٤ ، ٧ .

أما في سفر اللاويين فنقرأ : (وتكونون لي قديسين ، أنا يهوه إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب) و(أسير بينكم ، وأكون لكم إلهاً ، وأنتم تكونون لي شعباً) ٢٠ ، ٢٦ .

بينما نقرأ في سفر الخروج : (أتّخِذكم لي شعباً ، وأكون لكم إلهاً) و(تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب مملكة كهنة وأمةً مقدسة) ٦ ، ١٩ .

●

إن هذه الآيات ، وغيرها الكثير مما نقع عليه في العهد القديم ، شكلت البذور الأولى للنزعة العنصرية عند اليهود . وإذ رأى اليهود أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، فقد واظبوا على إلقاء نظرة استعلائية تفوُّقية باتجاه الشعوب والأمم الأخرى . بل إنهم واظبوا على حوك المؤامرات ضد هذه الشعوب والأمم ، منذ أزمان غابرة وحتى اليوم ، بهدف الإيقاع بها وإذلالها وجعلها تذعن لمشيئتهم . وإنطلاقاً من هنا فإن الارهاب ، كمفهومٍ وممارسة ، أصبح في صُلب العقيدة الدينية اليهودية . فالشعب المختار يجب أن يكون سيداً ، حين يجب على الشعوب الأخرى أن ترسف في الأغلال . وما الإرهاب إلا الوسيلة الناجعة التي تفضي إلى هذه النتيجة . ويتخذ الارهاب الصهيوني المعاصر أوجهاً شتى ؛ فمن بَقْر بطون النساء الحوامل في « كفر قاسم » و« دير ياسين » إلى اغتيال الرُضَّع والعَجَزة والشيوخ العُزَّل في « صبرا وشاتيلا » إلى القاء النابالم على مخيمات الفلسطينيين في جنوب لبنان . فالتشريعات أو القوانين التي سنّها موسى تنطلق من مفهوم القبيلة المنطوية على نفسها . وهي ترمي ، من وجهٍ أول ، إلى اندماج اليهود في وحدة عنصرية ، قتالية ، إرهابية ، منغلقة . أما إذا حدث ومدّت هذه القبيلة جسوراً باتجاه القبائل أو الشعوب الأخرى ، فَلِغَرضٍ أساس وهو اضطهادها والسيطرة عليها .

هوامش :

(١) (٢) (٣) سفر نحميا ـ ١ ، ١٣ ، ١٠ .

(٤) د. كنعان، جورجي، سقوط الامبراطورية الاسرائيلية، دار الطليعة، ١٩٨٠، ص ٨٦.

(٥) سفر عزرا ـ ٧ .

(٦) راجع :

Toynbee, Arnold, A Study Of History, LONDON, 1960